مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب
Issn:2570 0058/E-issn:1969-2676
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/485

المجلد: 07 العدد: 02 جوان (2023) ص522-536

القيمة التاريخية والأدبية للنص الرحلي الجزائري في العهد العثماني

The historical and literary value of the Algerian nomadic text in the Ottoman era

د. روباش إيمان*

جامعة محمد بوضياف المسيلة (الجزائر)

imane.roubache@univ-msila.dz

معلومات المقال

تاريخ الإرسال: 2023/02/28

تاريخ القبول: 2023/04/06

الكلمات المفتاحية:

- ✓ الرحلة الورثيلانية:
- ✓ الإرث الأدبي:
- ✓ الزخم المعرفي:

الملخص:

أن للرحلات الجزائرية في العهد العثماني و أخص بالذكر "الرحلة الحجازية وبالتحديد الرحلة الورثيلانية " قيمتين عظيمتين: قيمة علمية تاريخية وأخرى أدبية، تكمن قيمتها الأولى باعتبارها مرجعا رئيسا بين يدي المؤرّخ يستقي منها معلومات تاريخية التي خصت العهد العثماني، و قيمتها الثانية تجلت في الآليات الفنية التي يستعين بها الرحالة لإعادة إنتاج الأحداث و الوقائع التي عاشها على أرض الواقع، وبالتالي استطاع النص الرحلي الجزائري في العهد العثماني أن يحقق للقارئ المتعة و الفائدة في الآن نفسه.

Article info

Received *28/ 02 / 2023*

Accepted *06/ 04/ 2023*

Keywords:

- ✓ *The Orthlanian:*
- ✓ *literary value:*
- ✓ *Historical value*

Abstract : (not more than 10 Lines)

The Algerian trips during the Ottoman era, especially the "Hijaz trip, and specifically the Warthlan trip", have two great values: a historical scientific value and a literary one. The artistic mechanisms used by the traveler to reproduce the events and facts that he lived in on the ground, and thus the Algerian nomadic text in the Ottoman era was able to achieve for the reader pleasure and benefit at the same time.

*المؤلف المرسل

مقدمة :

تكتسي الرحلة طابعا خاصا وأهمية كبيرة كونها تجمع بين الأدب كعلم له خصوصيته وتندرج ضمن الحقول السردية المختلفة كالقصة والرواية، غير أن أدب الرحلة يمزج بين علوم مختلفة فيمثل وجه الحضارة والعلم والتاريخ في مختلف تمفصلاته حتى يغدو-أدب الرحلة- جنسا أدبيا ووثيقة تاريخية يسترشد بها عالم التاريخ والجغرافي والأنثربولوجي والسياسي والاقتصادي، فكتب الرحلة درة ثمينة وجوهرة مصونة في عالم المعرفة.

تعتبر الرحلة من أهم الوثائق والمصادر التاريخية بالنسبة لحياة الأمم والشعوب نظرا لما تحمله من معلومات عن حياتهم وطبائعهم الاجتماعية والاقتصادية والعلمية، حيث تصور الحياة بكل ألوانها وزخارفها وقد رصد الرحالة في سفره مراكز الإشعاع العلمي وأماكن التقاء العلماء، والنخب العلمية، والمراكز الثقافية فقدم لنا وثيقة دقيقة ومفصلة لكثير من جوانب الحياة وهو ما يميز الطابع العام لأدب الرحلة.

تسعى هذه الدراسة إلى محاولة الوقوف على القيمة التاريخية والأدبية لأدب الرحلة والتي تتجسد أساسا في حيثيات العلاقة بين أدب الرحلة وعلم التاريخ أو تجلي التاريخ في أدب الرحلة متبعين الخطة الآتية :

- دواعي وأهداف الرحلة الحجازية.
- التعريف بالرحلة والرحالة موضوع الدراسة.
-دور الرحلات الحجازية في التعريف بأهم المعالم التاريخية ونقصد بذلك القيمة التاريخية لرحلة الورثلاني نموذجا.
- التواصل الثقافي بين المشرق والمغرب من خلال الرحلات الحجارية، الرحلة الورثلانية.
- القيمة الأدبية للرحلة الحجازية (الرحلة الورثلانية)

دواعي وأهداف الرحلة الحجازية :

يشير التعريف اللغوي للرحلة إلى الحركة والانتقال، ويقترب المفهوم الاصطلاحي للرحلة من المفهوم اللغوي في الصفة اللازمة لفعل الارتحال والتنقل والحركة، غير أن للرحلة فوائد ومنافع جمة ذكرها الأعلام وشجعوا لها وفي ذلك "يؤكد المؤرخ الرحالة عبد الرحمان بن خلدون..على أهمية الرحلات في إثراء معارف المتعلم وتنميتها فيقول :"الرحلة لابد منها في طلب العلم لاكساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال"[1]، فالرحلة من أثمن الفرص لاكتساب معارف وخبرات ليس في الصعيد العلمي فحسب، بل في دروب الحياة المختلفة والمتشعبة حيث تجلب منافع جمة كالفطنة وملازمة الرفقة الصالحة والتعرف على الشعوب والقبائل...

عرف الإنسان العربي الرحلة منذ الأزل فارتبطت بحياته ارتباطا وثيقا، وفي تراثنا العربي نجد أن حياة العربي قامت على الرحلة والانتقال سعيا وراء الكلأ والماء وحفاظا على بقائه تصارع مع عوامل الطبيعة المختلفة وصارت الرحلة جبلة وطبعا متوارثا جيلا بعد جيل، وقد عرفنا من أبائنا أنهم كانوا يرتحلون في كل عام مرة، و كانت دوافع رحلاتهم البحث عن مصدر أكل لأغنامهم، وسعيا وراء الأرض الخصبة التي تنتج محاصيل ضخمة من القمح والشعير، ولا تزال هنالك قبيلة النوايل التي تعرف بترحالها الدائم دون قرار ولا استقرار لغرض رعي الغنم وكسبا للقوت، بالإضافة إلى الرحلة لطلب العلم، فإلى وقت قريب كان ولا يزال طلاب العلم يتوجهون صوب جامع الزيتونة ودمشق سابقا والسودان وموريتانيا لتلقي مختلف العلوم.

تتعدد أنواع الرحلة بتعدد دواعي وأسباب الرحلة، غير أن الرحلة قديما تشترك في تجشم الأخطار وتحمل الصعاب، ومكابدة أهوال الطريق الواردة، ومع تقدم الأزمنة مكن الله للإسلام، فازدادت رقعة الدولة الإسلامية، وانتشر الأمن والسلام، مما انعكس إيجابا على الرحلة فتيسرت شيئا فشيئا، وتعد الرحلة لأداء فريضة الحج دافعا أساسيا للرحالة المغاربة على وجه الخصوص، فـ"الذهاب إلى الأماكن المقدسة بالحجاز وأداء مناسك الحج، وزيارة مهد العربية والعروبة، والنهل من منابع العلم

الشريف أبرز دافع كان يحث المغاربة على النزوح نحو المشرق بصفة مستديمة، وهذا مانجده عند أغلب الرحالة المغاربة في الرحلة الحجازية "[2]

وقد كان قصد الشيخ العلامة الورثلاني من رحلته واضحا، حيث صرح بذلك قائلا "اعلم أيها الأخ لما أراد الله المشي منا إلى الحج وقد سبق في علم الله أن يكون حجنا عام تسعة وسبعين (1179م) مع إجابة وتلبية للخليل حين قال له الله تعالى "وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق "حدث لنا العزم بإذن الله تعالى"[3]

شكلت الرحلة الدينية الحجازية دافعا أساسيا وقويا للرحالة منذ سطوع شمس الإسلام، وهي رحلة يتمناها كل مسلم لأداء فريضة الحج، وقد اكتسبت الرحلة الدينية طابعا مقدسا لارتباطها ببيت الله الحرام، وكان الدافع الأساسي لكثير من الرحالة كالورثلاني وابن بطوطة وابن جبير ومحمد العبدري وغيرهم، وقد انتظمت وتيسرت الرحلة إلى الحجاز، فكان "الحجاج يجتمعون في قوافل تبدأ صغيرة ثم تنمو كلما تقدم بها الطريق مما ينضم إليها من وفود حتى يصبح في النهاية للعراق حجيجه وللشام حجيجه ولإفريقيا حاجها وتسير القافلة في ألفة ونظام وتآلف وتعاطف شامل يحميها جنود الحكام ويرحب بها سكان المدن والقرى في أغلب الأحيان"[4]

والرحلة الحجازية من أكثر أنواع الرحلات شيوعا وانتشارا لارتباطها بأداء فريضة الحج وهي "الرحلة المكتوبة التي استهدفت تسجيل مراحل السفر والحديث عن معالم الحج وتأدية مناسكه"[5] ووصف طرقات ومسالك السفر والقرى والمدن التي مر بها الرحالة وصفا عاما أو مفصلا، وتعتبر الرحلة الحجازية عونا كبيرا للمؤرخ والجغرافي باعتبار أنها من أهم المصادر المحلية بتأكيدها الواقع عن طريق المشاهدة والمعاينة " [6]

التعريف بالرحالة والرحلة موضوع الدراسة:

الحسين الورثلاني :هو الحسين بن محمد السعيد الورثلاني نسبة إلى قرية بني ورثلان قرب بجاية ينتمي إلى أسرة اشتهرت بالعلم والتدريس ولد سنة ه1125_1713م وبها نشأ وتعلم ثم ارتحل إلى المشرق لطلب العلم وآداء فريضة الحج، فعقد الصلة مع كثير من العلماء في تونس ومصر والحجاز، وقد بلغ شأنا كبيرا في الفقه والتوحيد والنحو والبلاغة والتصوف، وإلى جانب اهتمامه بدنيا التصوف، تفرغ لدراسة اللغة العربية والتبحر في آدابها والنحو ودراسة التاريخ، حيث أكد الورثلاني على فضل التاريخ كعلم وعلى مكانته واتصاله بالعلوم الأخرى، واعتبر علم السيرة فرعا منه، وأن منزلة العالم إنما تقاس بمدى إلمامه بالتاريخ وأخبار الأمم والحضارات وعن علم السير يقول : هو سير الأنبياء وشمائلهم ووقائعهم وبعوثهم وسراياهم وصحبهم وخصائصهم وقصصهم"[7]

اشتهر الورثلاني في بلدته، وتعدت بعد ذلك شهرته خارجا بفضل رحلاته الكثيرة داخل الوطن وخارجه وكان له دور في الصلح بين القبائل، وإعانة الفقراء بمستلزمات العيش، وتوضيح المسائل الدينية للسائلين عنها [8]

أدى الورثلاني فريضة الحج ثلاث مرات.... يقول الحفناوي في التعريف به "هو الأمام العامل العالم العلامة الكامل الأستاذ الهمام شيخ مشايخ الإسلام، الورع الزاهد الصالح، الجامع بين المعقول والمنقول،..وقدوة العلماء العاملين [9]

خلف الورثلاني مجموعة من المؤلفات في الفقه والتفسير وفي أصول الذكر على الطريقة الشاذلية وأعمال شعرية وأضخم عمل تاريخي في كتاب رحلته ومن أهم أعماله " شرح المنظومة القدسية في التصوف..شرح العقيدة الوسطى في التوحيد للإمام أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي،..شرح محصل المقاصد للإمام أبي العباس أحمد بن زكريا لتلمساني، شرح كتاب "الصلاة" لمؤلفه الشيخ السمان القرشي....وكتاب المرادين وهو في الأذكار والأوراد "[10]

كتاب الرحلة:

تعد الرحلة الورثلانية من بين "أهم رحلات القرن الثامن عشر فقد جمع صاحبها بين أدب الرحلة والكتابة الجغرافية وتدوين التاريخ"[11] وقد أشار إلى ذلك في اختياره للعنوان نزهة الأنظار في علم التاريخ والأخبار، ففي رحلته نجد جزءا كبيرا من عادات وتقاليد المجتمعات، كما عنيت الرحلة بوصف القرى والمدن ومختلف المسالك والممرات، وقدمت إرثا حضاريا وثقافيا ينهل منه ويغترف التاريخ الذي هوعلم "يعنى بالمجتمع البشري من حيث تطوره عبر العصور ومزية المؤرخ الأولى تحري الحقيقة على ضوء دراسة الواقع والأحداث واستجلاء أسبابها"[12]، وذلك ما جسدته الرحلة الورثلانية، والتي جمعت بين الطريقة الأدبية في عرضها وخطابها وبين تقديم حقائق تاريخية يزيد عدد صفحاتها عن الثمانمائة صفحة جمعت وحققت في مجلدين فكان لصاحبها "فضل في التعريف بجزء كبير من العالم الإسلامي حيث اشتملت رحلته على معلومات في غاية الأهمية تتصل بالحياة اليومية والحياة الاجتماعية والإقتصادية والثقافية..، وكانت غايته من تأليفه أن يجعله عملا متميزا يفتخر به ويتركه شاهدا للتاريخ".[13]

وقد امتازت الرحلة الورثلانية بالثراء المعرفي حيث تحدث صاحبها عن الفقه والتفسير والتاريخ الإسلامي وسيرة الرسول ﷺ، وكما هائلا من أسماء الأولياء الصالحين وأماكن قبورهم وتطرق لكرمات الأولياء وذكر من الغرائب والطرائف ونقد العديد من مظاهر المجتمعات، ركزت الرحلة على "الرصد الجغرافي للمناطق والجانب الإخباري التاريخي الذي عزم صاحبها الكتابة فيه، مقرا ذلك بقوله أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادي ويستحسنها الشادي فإنها تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار "[14]

ونبه صاحب الرحلة إلى موضوع السير والتراجم وأهميته، ونوه إلى قلة الكتابة فيه عند أهل بلاده، فعمد إلى ترجمة عدد كبير من الأولياء والفقهاء واعتمد في ذلك على مصادر متنوعة بين كتب التاريخ والرحلات رحلة أحمد بن ناصر الدرعي ورحلة أبي سالم العياشي وكتب الفقه.

دور الرحلات الحجازية في التعريف بأبرز المعالم التاريخية ونقصد بذلك القيمة التاريخية لرحلة الورثلاني نموذجا :

أدب الرحلة الحدود والتعريف :

أدب الرحلة جنس أدبي له معالمه وسماته الخاصة، والتي يتميز بها عن غيره، عرفه الرحالة والأدباء منذ القديم، غير أن ما وصلنا مقارنة مع ما ذكر في كتب السير والتراجم قليل، وذلك بسبب الضياع والاستعمار ومنها مايزال مخطوطا لم يخرج إلى القراء في حلة أنيقة. وأدب الرحلة هوذلك "النثر الذي اتخذ من الرحلة موضوعا له تكتب في شكل نثري أدبي مميز وفي لغة خاصة من خلال تصور بناء فني له ملامحه وسماته المستقلة "[15] وفي كثير من الأحيان تأخذكتب الرحلة "طابعا فنيا أدبيا تاريخيا جغرافيا حتى غدت بالموسوعة الثقافية "[16] كما نجد أن أدب الرحلة "ظاهرة أدبية تتداخل فيها عناصر أدبية وخارج أدبية فهي الشكل النصي المفتوح وذلك نتيجة مكونات ثقافية واجتماعية وسياسية متداخلة ونسيج متفاعل يشكل نصا يتموقع في ملتقى علامات شديدة التجذر في حقول تعبيرية شتى"[17]، وهذا ما يشير إلى أن مصطلح أدب الرحلة "مصطلح يتعالى عن الضبط والتحديد لأنه كتابة تتعالى عن التصنيف ضمن خانة أجناسية محددة فضمير المتكلم المهيمن على الفعل السردي، وتطابق المؤلف والسارد والشخصية تمنح الرحلة مميزات تجعلها قريبة من السيرة الذاتية دون أن يجرؤ أحد على وضعها في هذه الخانة والتواريخ الدقيقة التي تصاحب الأحداث والوقائع تحيل إلى طبيعة المذكرات واليوميات غير أن الدراسة المتمعنة تجعل الدارس مترددا في وضعها هناك.."[18]، وهناك ما يشير إلى تعالق النص الرحلي مع الجغرافيا ويستفيد المؤرخ بشكل كبير منه، غير أن الفاصل في ذلك السمات الفنية والأدبية لخطاب الرحلة حيث يتعالق نص الرحلة مع التاريخ والجغرافيا، كما سنرى، إلا أن ما يميز نص الرحلة الأسلوب الأدبي والصياغة الفنية والجمالية والتي كثيرا ما تتداخل بنظم الأبيات الشعرية ليتأكد لدينا أن نص الرحلة جنس أدبي ذو خصائص تنفتح على غيرها من العلوم وهذا ما يميز أدب الرحلة، ويجعله ذا فرادة وخصوصية، وقد

توصل سعيد يقطين إلى أن "الخطاب هو جسر الرحلة إلى الأدب فكلما توفر الخطاب على جوانب فنية وجمالية وأدبية نكون أمام نص رحلي أدبي"[19]، وهذا ما سيعالجه المحور الثاني المتعلق بالرحلة والمعنون بـ القيمة الأدبية لرحلة الورثلاني نموذجا.

يعتبر أدب الرحلة "مصدرا مهما لا يمكن الاستغناء عنه في الدراسات التاريخية فرغم كونه فرعا من فروع الكتابة الأدبية.. إلا أنه ذا قيمة علمية كبيرة خاصة وأن كتابة الرحلات استندت على الملاحظة والمشاهدة المباشرة..وقد احتوت على كثير من المعطيات التاريخية والجغرافية التي أهملتها المصادر الأخرى "[20]

وتبرز القيمة التاريخية للرحلة الورثلانية في ما قدمه لنا من صور معبرة واضحة المعالم عن حياة الشعوب وتاريخ المجتمع الإسلامي، خلال القرن الثامن عشر والملاحظ أن الورثلاني ركز على وصف المعالم التاريخية الإسلامية (مكة، المدينة المنورة، بدر، البقيع، جدة ...)والمدن التي مر بها كتونس وليبيا ومصر خاصة أن رحلته كانت حجية فوصف المدن والمعالم الأثرية والدينية وصفا يمتزج في أحايين كثيرة بسرد التاريخ الخاص بذلك المعلم الأثري أو المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم، فيصف المدن متعجبا منبهرا ويقدم صورا عديدة لمظاهر المجتمع وعاداته وتقاليده وأحواله آنذاك.

يلفت الورثلاني أنظار قراء رحلته إلى التطور العمراني والهندسي للعديد من المساجد التي زارها مجاورة لمكة بعد أداء فريضة الحج، ومما ذكره حال أهل الإسلام خلال حقبة تاريخية (العهد العثماني) من نفس سنته التي نوى فيها الحج، يقول بعد أن هم بالسفر إلى الحج توقد توجه قبل ذلك إلى إصلاح ذات البين وقضاء حوائج بعض المسلمين "إذ القتال بين المسلمين في وطننا كثير والفتنة بينهم قل أن ترفع والهرج بينهم قوى..وحكم السلطان غير نافذ بينهم إذ لايقدر عليهم الحاكم وإن كانوا قريبا من الجزائر لكونهم تحصنوا بالجبال.."[21]، حيث استهل رحلته بفضيلة من أقوى عرى الإيمان وأجل الفضائل، وفي طريق سفره نجده كثير الزيارات لقبور الصالحين فيذكرهم ويذكر مكانتهم الدينية وأماكن أضرحتهم وقد يفيد هذا المتصوف ومدونوا أخبار التاريخ في رصد عدد كبير من أسماء أولياء الله الصالحين " ومررنا على قبر الشيخ الولي الصالح والقطب الواضح رحمه الله...سيدي يحيى العبدلي نفعنا الله به...الشيخ الولي الصالح...سيدي عبد الرحمان الصباغ....سيدي عبد الرحمان الثعالبي ﷺ "[22]، وغيرهم كثير يزورهم ويتبرك بهم طيلة مسيرة رحلته زفي مل بلد ومصر يمر به.

ويصف طريق الرحلة وقوافل الحجراصدا المسالك واصفا للممرات والقرى التى في طريق سيره ثم يعرج إلى ذكر مناسك الحج بعد الوصول منسكا منسكا ويسرد لقاءه بالعلماء والمشايخ من مختلف بقاع العالم.

وللأماكن المرتبطة بالتاريخ ـ معالم وآثار ـ حضور مكثف في رحلة الورثلاني ويرى أنه من "الأماكن التي لاينبغي للمجاور أومن معه نفس من الزمان إهمال زيارتها والورود عليها مدينة جدةوما بها من مشاهد كالمحل الذي يقال أن فيه قبر أمنا حواء، وممن جزم أن بها قبرها ابن خلكان في ترجمة ابن قلاقس الشاعر...على أن جدة في نفسها من أعظم البقاع فقد ورد في فضلها وفضل المقام بها والرباط فيها عدة آثار نقلها أهل الأخبار وهي مدينة كبيرة ممتدة مع ساحل البحر نحو ميلين في كلا طرفيها حصار متقن البناء فيه مدافع كثيرة وعسكر لا يفارقه"[23] ثم يسترسل في وصف جدة وما يحيط بها وما يختلجها وصفا دقيقا "وفي مرساها سفن كثيرة صغارا وكبارا.."[24] ويصف سكانها وأحوالهم ويقدم بذلك وثيقة تاريخية لحقبة تاريخية معينة، ويتطرق إلى استقرار أحوال هذا البلد وانتشار الأمن والسلام بين أطرافه فيصف ذلك متعجبا "وقد شاهدناه في هذه الخطرة من العافية التي بسطها الله تعالى في الطرق والقرى والأمان التام ما قضينا منه العجب، فمن ذلك أننا لقينا عيرا من ليل مظلم تحمل أحمالا من البر الهندي والقماش الرفيع نحوا من عشرين جملا وطلبنا أحدا من أصحابها نسأله عن أخبار البلد فلم نجد معها أحدا وذهبنا نحوا من ميل فوجدنا أصحابها في قهوة مستريحين أخبرونا أنها لو ذهبت كذلك إلى مكة لم يتعرض لها أحد وأخبرونا بعجائب من مثل ذلك وقعت في أيام الأمير زيد ووالده محسن"[25] ويفيدنا هذا الوصف التاريخي في التيقن من انتشار السلم والعافية والأمان خلال حكم الأمير زيد ووالده محسن، ويتعرض الشيخ لوصف الكثير من الأماكن والمعالم التاريخية

التي مر بها من ضمنها ذكرا لا حصرا قوله " نزلنا بدرا وهي قرية عظيمة ذات أسواق ومساجد ومياه ونخل كثير..وهي بدر التي ذكرها القرآن وهي مزارة عظيمة لا سيما قبور الشهداء..إلى أن وصلنا مسجد الغزالة وهي من الأمكنة التي صلى فيها النبي ﷺ وهو مسمى عند المؤخرين بمسجد عرق الظبية فزرناه وسألنا الله تعالى.."[26]

ويستمر واصفا طريق المدينة وما يلقاه في مسالكها من مساجد وجبال وسهول فيتعرض لها بالوصف ويصف ممرات الطريق وأيسرها بلغة رشيقة وعبارات متناغمة وألفاظ منسجمة وعندوصوله للمدينة المنورة يقول " واطمأن الفؤاد وطاب الحمد والثناء على الوصول روضة المتعالي وبلغ القلب مناه فغاب عن الأكوان بكامل البدور "[27]

ونلفه عند زيارة البقيع يعود بنا إلى التاريخ الإسلامي فيسرد جانبا منه استحضرته صورة المكان ليغذي مخزون الذاكرة ويستدعي الماضي التليد بعد رؤية المكان[28]، ومما أورده ونقله عن أهل المدينة أحوال التجارة بها وعادات أهلها ونسائها "وبالجملة فلا ينتفع أهل المدينة بركب إنتفاعهم بأهل الشام فإنهم يقدمون بتجارات كثيرة وطعام وأشربة يبيعونها في المدينة عند قدومهم ويدخرون ما بقي إلى الإياب فيبيعون ذلك بالمدينة "[29]

ويصف حال نسائهم في التستر التام غير أنهن يبالغن في التطيب والتعطر عند الخروج فأنكر ذلك ووضح حكم الشرع فيه بالأدلة والبرهان..ويواصل الشيخ وصف المعالم الإسلامية من مساجد ومشاهد ومقابر وأماكن مر بها وأقام بها رسول الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ويسرد كل ذلك بأسلوب قصصي جميل فيتقاطع التاريخ الإسلامي الماضي مع التاريخ الذي يقدمه لنا الرحالة خلال تعرضه لتلك المعالم.

إلى جانب ذلك "يسرد الورثلاني كثيرا من مضاهر ظلم الولاة في المناطق التي سلكتها الرحلة، ويكون هذا الظلم مسجدا في النزاعات الداخلية أحيانا أوسياسات ولاة الأقاليمفي المدن الرئيسية أو تدخل الأتراك في محاولة إعادة استتباب الأمن في المناطق وما نتج عنه من خرا ب ودمار"[30] وفي جور الأتراك وظلمهم ببلاد تونس يقول الورثلاني "وقد كثر جور الأتراك وشاع بها الظلم والفساد "[31]

ويرى الباحث بدر الدين دخولة أن الورثلاني "كان يمارس بعض التأريخ عندما يتحدث عن حال ولاة المناطق التي كانت تحت الخلافة العثمانية ولعل هذا البعد التاريخي هو الذي جعل الكاتب يضيف تعبير علم التاريخ والأخبار إلى عنوان الرحلة "[32] وإلى جانب تقديم الورثلاني لمختلف تمظهرات التاريخ ووصفه لكثير من الممرات والقرى ينقد بعض الظواهر الاجتماعية في القرى والمدن والقبائل التي مر بها ورغم حسن الاستقبال الذي حضي به الشيخ في زمورة ورغم الثناء عليها "إلا أنه يرى في هذه البلدة من جهة أخرى أنها كثيرة السمن، والشحم، واللحم، والمياه الباردة والديار الواسعة والثياب الحسنة الرهيفة من الصوف والكتان، وكل ذلك مناقض للخشية وأوصاف العبودية وإنما هو مثير للشهوات والمخالفات من إظهار المعاصي "[33]

ويتحدث إلى جانب ذلك عن تبرج نسائها وكشفهن لما لايجب وينكر ذلك ويرى أنه مورد للفتنة، وقدم كذلك صورة معبرة عن إنتشار البدع بالمنطقة والابتعاد عن أحوال الصالحين وقد سجد بذلك تاريخا مهما عن المنطقة خلال زمن معين.

ومن نماذج الأحداث التاريخية التي كان شاهد عيان بها ما أورده من أخبار وأحداث عن أهل طرابلس عندما هاجمهم الكفار "حاصرهم الكفار دمرهم الله تدميرا وذلك أن يوم نزولنا بها بمنزل الركب بشط البحر إذا بسفن ثلاث ظهرت على متن البحر ثم تتابعت في اليوم نفسه إلى أن اكتملت اثنين وعشرون سفينة فأقاموا عليها دمرهم الله..وأهل المدينة في تلك المدة في هول عظيم ونكد جسيم وعناء شديد وليس فيهم مدبر أوذو رأي حميد أونظر شديد "[34]

يسجدلنا هذا المثال حدثا تاريخيا تمثل في دخول المستعمر للبلاد الليبية في انبهار مدني وهول لما رأوه دون إظهار حالة الاستنكار أو الدفاع عن الأرض.

ومن خلال ما سبق يمكننا أن نقول أن الورثلاني قدم لنا صورة فسيفيسائية عن المجتمعيتقاطع فيها التاريخ مع الأدب الوصفي للعادات والتقاليد والمسالك والقرى والتي يستطيع أن يستنير بها المؤرخ والجغرافي وعالم الاجتماع، وكل ذلك يقدمه

الرحالة في قالب تثري وصور متناغمة بديعة المحاسن جميلة الأثر، "ذلك أن الرحلة كما نعلم ولدت في حضن التاريخ وحينما صارت قائمة بذاتها، لم تنفصل عن مصدرها وإنما حولته إلى عنصر جوهري في بنائها "[35]، وبرز التلاحم الوثيق بين مختلف العلوم من خلال الرحلة

التواصل الثقافي بين المشرق والمغرب من خلال الرحلة الحجازية الورثلانية :

يقدم أدب الرحلة حصيلة علمية ذات قيمة حيث "يهتم بجمع أخبار البلاد والعباد وتسجيل المشاهد الغريبة والطريفة وهو يتسم بسمات تاريخية وجغرافية لاهتمامه بحياة الإنسان وتقاليدهم وأنماط عيشهم "[36] وقد شكلت منطقة الحجاز في القرن الثامن العشر للميلاد مركزا ل"أعداد هائلة من العلماء الذين لم يكونوا أبناء الحجاز وحدها وهؤلاء أدوا عملا بارزا في رواج الحركة العلمية وهذا ما ظهر جليا من خلال ما سجله الرحالة المغاربة من أسمائهم وتراجمهم والتي زادت في تلك الفترة "[37]، وهكذا نجد أن منطقة الحجاز خاصة مكة المكرمة والمدينة المنورة توفرت لها أسباب لم تتوفرلغيرها من بلدان العالم الإسلامي، وكانت الدروس تعقد وفق نظام تعليمي وقوانين محددة، وحددت العلوم التي تدرس والأماكن التي تعقد فيها الدروس بتخصيص مكان لكل عالم وخزانة لكتبه.وقد كانت الرحلة الحجازية إلى جانب مقصديتها الأساسية، والمتمثلة في آداء فريضة الحج، كان الرحالة يلتقي بالعلماء والمشايخ، وقد التقى الورثلاني بعدد من العلماء فذكرهم في رحلته وعرف بهم وبسماتهمومكانتهم العلمية وذلك للإستفادة من علومهم ونهج سبيلهم والتزود من بركاتهم وهو ما يصرح به عندما يقول "إنما نذكر من ذكر الإخوان والمحبين وبيان أوصافهم ليتحقق السامع بأحوالهم ويتصف بأوصافهم والأقل أن يحضر عند بركاتهم"[38]، وكان عدد ممن يقدم لدواعي الحج والعمرة خاصة من طلبة العلم والعلماء "يقيم فترة للمجاورة للتزود ببعض العلوم الشرعية ومجالسة أهل العلم الذين لا يتيسر لقاؤهم في غير الحجاز "[39] وعديد من الرحالة المغاربة عادوا إلى بلدانهم "محملين بنوادر المؤلفات والكتب فانتقلت بذلك أعداد هامة من المخطوطات العربية من المشرق إلى الخزانات العامة والخاصة بالمغرب...كثيرا من الكتب المشرقية لم تكن لتنال الشهرة في دول المغاربة وتحظى بالاهتمام بها شرحا وتلخيصا وتقليدا أوحفظا لولا الرحالة "[40]

شكلت الرحلة الحجازية عبر التاريخ منبرا ومحطة هامة للتواصل الثقافيبين المشرق والمغرب وذلك من خلال التعرف على علماء المشرق ونقل أخبارهم وعلمهم لبلاد المغرب فبعد عودة الرحالة وفي طريقه سيذكر لأهل بلدته وطلاب العلم حال العلم والعلماء وأثره في نفسه ويقدم لهم الحصيلة التنويرية التي استنارت لديه بفضل أولائك العلماء فيتجلى التواصل الثقافي بين المغرب والمشرق، في الإستفادة من علوم وعلماء أهل المشرق الحجاز ونقلها مشافهة وتدوينا لطلبة العلم والمريدين.

ويتجلى كذلك من خلال تأثر هؤلاء الطلبة بما سمعوه وشوقا للنهل من العلوم والمعارف تشد الرجال للحجاز لمباشرة هؤلاء العلماء والإنتفاع بهم.

ويتجلى كذلك في الكتب والمخطوطات التي يجلبها الرحالة وغيره ممن اتجه صوب أرض الحجاز سواء للحج أو لمقصد طلب العلم وغير ذلك.

<u>القيمة الأدبية للرحلة الحجازية (رحلة الورثلاني) :</u>

و نحن نطلع على النص الرحلي الحجازي من خلال رحلة الورثلاني وجدنا فيها الكثير من الملامح الأدبية والنواحي الجمالية، ولعل ما أغرانا لمقاربته ودراسته من خلال التركيز على الجانب الفني والقيمة الأدبية فيه هو المزج الذي يعتمده الرحالة بين الواقع والمتخيل، وبين العادي والعجائبي في الحكي عن الذات وعلاقتها بالسفر، يقول شعيب حليفي : " تعدّ الرحلة نصا سرديا يتراوح بين قطبي الواقعي والخيالي بأسلوب يسجّل ويصف رحلة انتقال السارد / المؤلّف من فضاء لآخر داخلي أو خارجي على المستوى الفعل "[41]، كما يرى نبيل راغب أن " الرحالة تغلب على كتاباتهم ما يستندون به إلى الواقع أحيانا،

ويجنحون إلى الخيال أحيانا أخرى، ويحفلون فيه بالقصص للمتعة التي تصل إلى مرتبة الأدب الفني الصرف في أغلب الأحيان"[42]، ومنه "فالرحلة الأدبية إن لم تكن قصة ولا رواية بالمعنى الدقيق، فهي أخت شقيقة لهما"[43] من هنا يتّضح أن التعامل مع النّص الرحلي هو تعامل مع نّص أدبي الذي يكتب بلغة فنية أدبية، ويبنى بناء فنيا، له ملامح وخصائص تقرّبه من الفنون الأدبية السردية ".

إذا كان أدب الرحلة فن أدبي يحمل فائدة علمية وتاريخية فإنه يحفل كذلك بكثير من الأساطير والخرافات، وبعض المحسنات البلاغية، و جمال اللفظ، وحسن التعبير وارتقاء الوصف، وبلوغه حدا كبيرا من الدقة، علاوة على ما يستعين به أحيانا من أسلوب قصصي سلس مشرق، وهذا هو الذي يجعل بعض الدارسين يدخلون أدبيات الرحلات ضمن فنون الأدب العربي"[44]،

إن الخصائص الفنية والجمالية التي تتميز بها رحلة الورثلاني باعتبارها نصا أدبيا سرديا تتجلى في العناصر الآتية :

- **<u>الطابع السردي القصصي للرحلة الورثلانية</u>** : يعد السرد في رحلة الورثلاني الرابط بين التجربة الفعلية الماضية، وبين استحضارها ذهنيا، ثمّ تحويلها إلى كتابة خطية، إذ يسرد ليستعيد تجربته الماضية لأداء مناسك الحج، وذلك عبر استرجاع مسار هذه الرحلة ذهابا وإيابا، وإيقاع سيرها انتقالا وإقامة، واستحضار أهم اللّحظات والتجارب التي ظلّت راسخة في ذاكرته من تفصيلات استثنائية وغير مألوفة "[45].

تضمّنت الرحلة الورثلانية نمطين سرديين :

السرد التقريري :اعتمد فيه الورثلاني الأسلوب المباشر، فجاءت لغته بسيطة سهلة دون أي تأنق في الأسلوب، وتكون الأولوية في السرد التقريري لسرد الأحداث فقط، وإخبار القارئ بما وقع في مسار الرحلة دون إضفاء أي صبغة ذاتية على السرد، فيأتي السرد في صورة لقطات متتابعة يتتبعها القارئ دون أن ينفعل معها، ومن أمثلة ذلك قول الرّحالة : **"مررنا على ولد الشيخ بوعزيز الحناشي، وهو الشيخ إبراهيم فأتى إلينا، ونحن السابقون، فسلّم علينا وطلبنا في الدعاء، فدعونا له بالهداية والرجوع إلى بلده، وإنه أمرنا بالنزول عنده فامتنعنا من ذلك لأنه أول النهار، ثمّ سرنا فبتنا عند أولاد يعقوب، ثمّ رحلنا عند الضحى فجاؤوا إلينا بجيوشهم ظنّا منهم أن العرب غارت عليهم، فلمّا التقى الجمعان علموا بنا أنّنا حجّاج فرجعوا، ونزلنا عند السّبخة عند صلاة العصر "** [46]

وإن غلب على الرحلة االسرد التقريري المباشر إلا أن هناك نمطا آخر من السرد أضفت على الرحلة بعدا جماليا وفنيا وهو السرد الأدبي، إلى جانب اطّلاع الرحالة القارئ على مراحل السفر ومحطاته، يحاول في الآن نفسه نقل بعض الأحاسيس والمشاعر التي يشعر بها، مما يصبغ السرد بظلال ذاتية تزيد من شدّة انتباه القارئ لمتابعة القراءة، يسرد الورثيلاني ما حدث له حينما تخلّف عن الرّكب انتظارا لأحد رفقائه فيقول : **"انتظرنا إلى أن استوى رحله، وقام على جادة الطريق، وإذا بالحجاج فاتونا، فلم يقع لنا بصرعلى أحد، ومع ذلك ضلّ عنّا الطريق، ثمّ أني نزلت عن بغلتي، وانثنيت إلى الجبل، وتبعني سيدي أحمد، ومن معه، وأنا كذلك أتحسس من الرّكب، فلم أسمع صوتا ولا همسا، ثمّ كذلك إلى قرب انقطاع الجبل، فتحسست منه أيضا، فسمعت صوت سائقة الإبل وراء الجبل، ففرحت غاية الفرح، وبينما أنا كذلك إذ رأيت الرّكب يمشي، فكان الحجاج عن يمين الجبل، ونحن على يساره، فرجعت إلى سيدي أحمد الطّيب، فذكرت له الخبر، بعد أن آيس من لحوق الركب "** [47] يبدو الورثلاني من خلال هذا النمط من السرد حريصا على نقل الأحداث في شكل صور ومشاهدات مصطبغة بأحاسيسه وشعوره، لتكون أكثر إثارة للقارئ، وأكثر شدّا لانتباهه، وأكثر تحقيقا للمتعة، فالرحالة نقل تجربته في صورة "ممتعة، وأخبار تلذ وتمتع، بصورة أدبية، تتّسق مع النفس البشرية، فشكّل رافدا ثريا من روافد الفن والمتعة الأدبية "
[48]

من جماليات السرد عند الورثيلاني اعتماده السرد المتقطّع فـ"الرّحالة لم يقتصر في رحلته على سرد أحداث الرحلة فقط، بل يمزجها بشيء من الوصف المنصرف للأماكن الطبيعية والعمرانية، والشعر، وتقديم جملة من المعارف المتنوعة[49]، فنجده

كثيرا ما يوقف السرد بين الفينة والأخرى خاصة عندا يعجب بمنظر من المناظر أو ببناء من الأبنية، قصد اطلاع القارئ على صورة الموصوف الذي أثار انتباهه وإعجابه، وكأنه يريد أ يشرك القارئ بما يشعر به من الأحاسيس، يقول الورثيلاني واصفا قسنطينة : **" وهي مدينة في وطننا وقاعدة من قواعد بلادنا، وإن لم يكن فيها سلطان ففيها نائبه السيّد الباي، وهي مدينة قوية ليست كبيرة جدّا ولا صغيرة جدّا أيضا، عليها سور كبير، وفيها أبواب ثلاثة باب الوادي، وباب الجابية، وباب القنطرة، وفيها بويب صغير يخرج من الآدمي..."**[50]

ومن جماليات السرد في رحلة الورثيلاني اعتماده المفارقة السردية أو الزمانية، تعدّ بنية السفر البنية الأكثر هيمنة على الرحلة، فتأتي أحداثها متعاقبة ومتزامنة مع الزّمن الواقعي للحكاية، لكن هذا لا يعني عدم تدخّل الرّحالة كسارد للأحداث ليمارس لعبة السرد " **قد يبتدئ السرد بشكل يطابق زمن القصة، لكن سرعان ما يقطع ذلك السرد، ويرجع إلى وقائع تأتي في ترتيب زمن السرد بعد أوان وقوعها الطبيعيفي زمن القصة، وهناك أيضا إمكانية استباق الأحداث في السرد بحيث يشير إلى وقائع قبل أوان حدوثها الطبيعي، وهذا ما يطلق عليه إمّا استرجاعا لأحداث ماضية أو استباقا لأحداث لاحقة** "[51]

قد وظّف الورثلاني في رحلته تقنية الاسترجاع، وذلك من خلال إشارته لأحداث ماضية، ومن أمثلة ذلك ما ذكره عند زيارته ضريح شخصية فاعلة في التاريخ الإسلامي وهو " عقبة بن نافع " يقول : **" هو عقبة بن نافع الفهري التّابعي القرشي، ولد في زمن النبي ﷺ، ولذلك عدّه بعضهم من الصحابة ولاه معاوية بن أبي سفيان على إفريقيا، ووجهه إليها في عشرة آلاف من المسلمين فافتتحها، وقاتل من بها من النصارى حتى أفنى أكثرهم "**[52]، وقد استخدم التقنية نفسها عندما وصل إلى طرابلس ليعود بنا إلى بداية تاريخها الإسلامي يقول : **" غزا عمرو بن العاص مدينة طرابلس سنة ثلاث وعشرين حتى نزل القبة علر الشرف من شرقيها، فحاصرها شهرا لا يقدر منهم على شيء، فخرج رجل من بني مدلج ذات يوم من عسكر عمرو يتصيّد في سبعة نفر، فمضوا غربي المدينة فاشتدّ عليهم الحرّ، فأخذوا راجعين على ضفّة البحر، وكان البحر لاصقا بالمدينة، ولم يكن بين البحر والمدينة سور(..) فدخلوا منه حتى أتوا من ناحية الكنيسة فكبروا، فلم يكن للروم مفزع إلاّ إلى سفنهم "** [53]

كما وظّف الرّحالة تقنية الاستباق-وهي الإشارة إلى وقائع قبل أوان حدوثها - في الرحلة، ومن أمثلة ذلك ما ذكره الرّحالة على لسان أحد الشيوخ سيدي عبد الحق من أنّهم سيتعرّضون لهجوم من بعض المحاربين يقول : **" وعند الافتراق أزال جبّة صوف عن جسده فألبسها لي وعلمت أن الله تفضّل عليّ بذلك، ثمّ إنّه عند الانفصال قال لي أخاف عليكم من المحاربين بأن قال قد ثبت عندي بأنّهم خارجون إليكم ولا أدري أذلك من طريق الكشف وهو الأنسب والأليق بمقامه، أو سمع ذلك ممّن يوثق به، فلما أخبرني بهذا رسم جدولا في الأرض وخطا خطا، وأمرجميع الحجاج أن يمروا بذلك الخط، فمرّ عليه... وفي ذلك اليوم تلاقينا مع العدونفسه المحارب لله ورسوله "**[54]

<u>-البعد التخييلي العجائبي في الرحلة</u> :يذكر الورتيلاني في بداية حديثه ما يفيد أنّ نصه لا يخلو من غريب وعجيب قائلا : " أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادئ ويستحسنها الشادي، فإنها تزهو بمحاسن عن كثير من كتب الأخبار مبيّنا فيها بعض الأحكام الغريبة والحكايات المستحسنة والغرائب العجيبة، وبعض الأحكام الشرعية " [55]، يظهر البعد التخييلي العجائبي في رحلة الورثيلاني بعدّة أشكال منها :

<u>الغيبي</u> : يدخل الغيبي في كرامات الأولياء الصالحين الذين يملكون قوى خفية لا يملكها أحد وتجعلهم ذوي مكانة خاصة عند الله وعند الناس، ومن أمثلة ذلك ما رواه **لموت خيل لقوم تعدو على زرع سيدي الشيخ يحي العبدلي** [56]، **ومن أمثلة ذلك أيضا حكاية الشيخ سيدي أبو علي المسيلي من كراماته بعد موته " أنّ شخصا من تونس له صديق في بجاية مات يراه دائما في النّوم يتعذّب، ولمّا مات أبو علي المسيلي رآه في نعيم وسرور، وسأله عن السبب وكان مدفونا في جبل خليفة، فقال له لمّا مات الشيخ غفر الله لمن كان بين أطراف المدينة من قبره إلى الجبل ضيافة له وهدية نفعنا الله به أمين "** [57]

الخوارق: ويصنّف إلى نوعين من الخوارق : الخوارق في السلوك والطباع، وخوارق الأولياء [58]، ومن أمثلة الخوارق والسلوك في رحلة الورثيلاني أنّ سيدي إبراهيم بن عمار لم يفوّت صلاة الصّبح مع شيخه سيدي يحي صيفا وشتاء، وقد فعل أن الشيطان يصنع النار له لعلّه يعوقه عن اللّحوق به، فشعر به، ولم يلتفت له أصلا ولعنه واستعاذ من شرّه " [59].

و من خوارق الأولياء تكليم الجماد، كما خاطب سيدي يحي العبدلي الجبل : " أنّه لمّا بنى مسجده المعلوم اختلفوا في القبلة، فلمّا اختلفوا فيها، قال الشيخ سيدي يحي لجبل فوق قريته انخفض، فانخفض فتبيّنت لهم الكعبة ورآها كل من كان هناك " [60]

عجائبية المكان : يعدّ المكان مكونا أساسيا في أدبيات الرّحلة، تظهر قيمته من حيث ثرائه بتنوّع مصادر الحكي فيها، و" لمّا كانت رحلة الورثيلاني تتقاطع في أحداثها ومن حيث منشئها بالفكر الصوفي، فإنّها دلّت على ذلك بالنّظر إلى الأبعاد التي أعطاها ساردها، فخرجت من طابعها الواقعي لتسكن مجال المستحيل واللاّمعقول " [61]، وقد خصّص الورثيلاني مساحات في رحلته ذكر فيها أماكن كثيرة خصّها بالوصف العجيب منها بئر " أريس" وهو من الآبار التي ارتبطت تاريخيا بسيرة الرّسول صلى الله عليه وسلّم وذكره ارتبط برواية غريبة مفادهاأن الزّيارة تستحب له قصد الشرب منه بسبب ما وصل عنه من أخبار" فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنّه خرج إليه، وكذلك أبوموسى الأشعري وأبو بكر وعمر وهناك لحق بهم عثمان بن عفان وبشرّهم بالجنة، وأن خاتم النبي كان في يد أبي بكر ثم عمر ثم في يد عثمان إلى أن سقط في بئر أريس، فلم يعثر عليه، كما يروى أن النبي تفل فيه، وسبب ذلك صار ما ينمو من عنب في حديقة بالقرب منه مطلبا للعامة "[62] يرى شعيب حليفي أن " **التخييل في الرّحلة ليس كذبا وإنما هو عنصرفي ورؤية الأشياءتتضمّن موقعا من العالم الذي يراه الرّحالة، قد تصطدم بتصوراته القبلية**[63]" وهذا لدليل على الجانب الروحاني والصوفي في شخصية الورثلاني الذي يؤمن بكرامات الأولياء الصالحين، وبقدراتهم الخارقة، وبقدسية المكان و عجائبيته باعتبار أنه هبة من الله، فما هو عجائبي في رحلته لم ينسجه الورثيلاني من خياله بل واقع حقيقي يؤمن به ويعتقده.

بلاغة الوصف : إن أدب الرحلة هو وصف لكل ما انطبع في ذهن الرحالة وهو يجوب الأماكن والأمصار ذهابا وإيابا، فبين الذهاب والإياب يلاحظ ويعاين، يوثّق وينقد، ينفعل ويتفاعل، فيكون الوصف دقيقا وبارعا كون جوهر الرحلة :" هو وصف السّفر من موضع إلى آخر، وما تقع أبصار المسافر من مشاهدات، وما يستطرفه من أخبار " [64]، وبالعودة إلى النص الرحلي للورثيلاني تظهر براعة الرّحالة في الوصف، ومن أمثلة ذلك وصفه لمدينة تونس يقول : " ولمدينة تونس سور يدور بها، ويقال : إن دورها أربعة وعشرون ألف ذراع، وجامعها مليح الصناعة، حسن الوضع، مطل على البحر، بناه عبيد الله بن الحجاج هو ودار الصناعة سنة أربعة عشر ومائة وألف يطلّ عليها البحر وتونس في سفح جبل " [65]، ففي هذا المقطع الوصفي نلمس الكثير من الأمور المتعلقة بتاريخ هذه المدينة، وجرد لمجموعة من العناصر العمرانية التي تخلق الدهشة في ذهن القارئ، وتحثّه على مواصلة القراءة، ويواصل الورثيلاني تقديم وصفا مفصلا لتونس ليثير شهوة المتلقي ويغريه بزيارته من خلال جرد دقيق لمعالم ذلك البلد بأسلوب جميل يعتمد فيه السجع الذي يخلق نغما موسيقيا عذبا، يقول الورثيلاني : " وبالجملة فإن تونس خيرها وحالها كريم، ووصفها نعيم، وطبعها نسيم، حلوة المذاق، عزيزة الفراق، كثيرة الاشتياق، قوية الأسواق، ممدودة الأرفاق، واسعة الإنفاق، جالبة الأرزاق، كثيرة الفواكه في جميع الأوقات بلا كلفة ولا مشاق، جامعة لأجناس الخلائق، فيها جميع الأصناف من أهل الحقائق، روضة للمطيع والعاصي، والرّحيم والقاسي، والمستيقظ والناسي" [66] وبالتالي يصبح الوصف عنصرا من عناصر التّحفيز من شأنه التأثير في المتلقي، مما يجعله يشعر وكأنه رحالة مثله يشاهد كل ذلك بعينيه، ويقدّم مقطعا وصفيا آخر خلال زيارته لطرابلس يقول فيه : " ومدينة طرابلس مدينة كبيرة أزلية على ساحل البحر، يضرب في سورها ماء البحر، وهو من حجر جليل من بناء أول، ومن طرابلس إلى مدينة نفوسة ثلاثة أيام، ومن جبل نفوسة إلى القيروان ستّة أيّام "[67] من خلال هذا المقطع الوصفي حدد الورثيلاني المسافات الزمنية للانتقال عبر هذه الأمكنة بدقة، ممّا يسهم في إغراء المتلقي

على السفر والرحلة، وهذا بالاتّكاء على الملاحظة العينية التي تعدّ أكثر خصوبة ودقة في عملية الوصف، وهنا تكمن جمالية الوصف وبلاغته.

و كثيرا ما يلجأ الورثيلاني إلى التصوير الفني، فيعمد إلى إبراز فكرته في صورة مرئية محسوسة وملموسة، بعد أن يستقصي جوانب المظهر الحسي ثم يقيم علاقة التشابه بينها وبين المحسوسات، وقد اعتمد هذا النوع من التصوير عند وصف بركات الولي الصالح " سيدي عيسى بن محمد "بالأمواج وأحواله بالأبراج في قوله : " ومنهم من بركاته كالأمواج، وأحواله كالأبراج الولي ذو البركة الظاهرة، والخوارق الباهرة الشيخ سيدي عيسى بن محمد قد انتفع به العامة والخاصة " [68]، فوصف الورثيلاني بركات ذلك الولي الصالح بالأمواج لدلالة على سعة بركاتهم فهي لا تعدّ ولا تحصى ينتفع منها العام والخاص.

كما تخللت رحلة الورثلاني بعض الجمل والتعابير المنزاحة عن معناه تصويرا ووصفا كما في قوله : " ولم نزل كذلك بصواعق الشوق ترتعد الجوارح منها وتعطش.... وجناح العشق له ريش " [69]، وقوله يصف فراق الأصحاب من الأحبّة والزّهاد والعارفين : " فغربت شمس الاجتماع، وكُسِف نور المشاهدة والانتفاع، ولما أقبل ليل البين وظلمة الإقصاء والانقطاع تتجافى جنوبنا عن مضاجع الأنس، وضاقت بنا الوحشة " [70] وقوله وهو بالمسجد الحرام : " فلم يمر علي زمان أحلى من هذا الزمان، واستقرت بمكان أحلة من هذا المكان، فذلك الوقت هو عيد الأرواح، وجنة الأشباح، وبستان الفؤاد يزهر بالأقاح " [71]

الخصائص الأسلوبية فيالرحلة الورثلانية :

- كثرة النعوت : ويكثر هذا الأسلوب حين يتعلّق الأمر بوصف شخصية أو مكان، ومن أمثلة ذلك قول الورثيلاني عند وصف أحد الأولياء الصالحين : " ومنهم ذو الفضل **العظيم** والخير **العميم**، الولي **المشهور**، ذو السر **المأثور** سيدي الجودي العلمي من آخر القرن العاشر وأولاده أهل جد واجتهاد وصلاح " [72]، وفي وقوله واصفا أحد الأودية : " واد كبير تأتيه السيول من بلاد بعيدة، ويذكر أن سيل المدينة المشرفة على من تشرفت به أفضل الصلاة والسلام وأزكى التحية والإكرام يصل إليه، وماؤه قبيح جدا إلا أن يكون عقب سيل فيحسن، وبه أحشاء كثيرة وأشجار ملتفة، ووجدنا جل ماء آباره جيدا لقرب العهد بالسيل " [73]

- **الألفاظ المتجانسة والفواصل والأسجاع المتناسقة** : وهو ميزة عامة في أدب الفترة العثمانية تتزيّن به النصوص الأدبية، وقد تفنّن الورثلاني في توظيف الجناس والسجع في الرحلة، وهما مكوّنان إيقاعيان يساعدان على شدّ انتباه السامع والقارئ، ومن أمثلة ذلك قوله : " ومنهم الشيخ العارف بالله الزاهد في الدنيا رأسا المتخلي عنها نفسا سيدي محمد بن قري " [74]، ونفس الأمر في قوله : " منهم ذو العلم والمهابة والحلم والأناة والسطوة والاستجابة، والتحقيق والإصابة ذو العلوم الفاخرة، والأحوال الصادقة الظاهرة، والأنوار الباهرة، والأسرار الحاضرة " [75].

- الأسلوب القرآني : وهي سمة المتصوفين المتأثرين بالقرآن الكريم، ويظهر هذا الأسلوب واضحا في بداية الرحلة، يقول الورثيلاني : " الحمد لله الذي خلق الإنسان أطوارا، وجعل الشمس والقمر والنجوم أنوارا، وسيرها من كون إلى كون، بحيث تقطع أبراجا ليلا ونهارا، فيا عجبا من رحلتها يسوق الأملاك إياها، فهي آية النهار حقا مشهورا " [76]

- حضور الشعر في النص الرحلي الورثلاني :

إن ميزة توظيف الشعر في النص الرحلي لا تخص الورثلاني وحده، فليس هناك رحلة خلت من الشعر سواء الذي ينظمه الرحالة أو الذي يأتي به لغيره من ديوان العرب عبر مختلف عصوره، ومن شتى أغراضه لتأييد فكرة أو إثبات خبر، وهذا ما يفرض على الرّحالة انتقاء المادة الشعرية المناسبة للهدف المسطر، ولطبيعة ما يريد الوصول إليه "[77]، ومن القصائد التي جاءت في رحلة الورثيلاني ما قاله في سيدي الصادق وأولاده يقول : [78]

يا أيها الإنسان فاعلم قدرهم ... لأنهم سحابة مع غيثهم

قد اخضرّت أشجار أهل ... العصر وأثمرت فواكهها بتمر

فهـــم كحصـــن مـــانع يلـــوذ	منلـــه الجنايـــة بحـــق أو ضـــمن
رحمـــتهم تعـــم كـــل بلـــد	وســـرهم مـــن ســـر فضـــل أحمـــد
قـــد ســـكروا بحبـــه وقربـــه	فمنحـــوا مـــن عـــزّه وحلمـــه

ولعلّ حضور الشعر في النص الرحلي الورثلاني قيمة أدبية تضاف للرحلة

الخاتمة :

بهذه المميزات المتعلّقة بأسلوب الرّحلة كفن قولي وموضوعاته الشمولية الغنية بما يوجد فيها من علم وأدب، يمكننا اعتبار أن للرحلات الجزائرية في العهد العثماني وأخص بالذكر " الرحلة الحجازية وبالتحديد الرحلة الورثيلانية " قيمتين عظيمتين : قيمة علمية تاريخية وأخرى أدبية، تكمن قيمتها الأولى باعتبارها مرجعا رئيسا بين يدي المؤرّخ يستقي منها معلومات تاريخية التي خصت العهد العثماني، وقيمتها الثانية تجلت في الآليات الفنية التي يستعين بها الرحالة لإعادة إنتاج الأحداث والوقائع التي عاشها على أرض الواقع، وبالتالي استطاع النص الرحلي الجزائري في العهد العثماني أن يحقق للقارئ المتعة والفائدة في الآن نفسه

قائمة المصادروالمراجع:

قائمة المصادر:

-حسين بن محمد الورثلاني:الرحلة الورثلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فل علم التاريخ والأخبار،، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008، ط1.

قائمة المراجع :

- جورجي غريب : تاريخ الرحلة، تاريخه وأعلامه، المسعودي، ابن بطوطة، الريحاني، دار الثقافة، بيروت، لبنان، دت، دط،

- حسين نصار : أدب الرحلة، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، ط1، 1991

- حياة ذيبون : التلاحم بين التاريخ والسرديات في خطاب الرحلة المغربية :ضمن، كتاب جماعي :الرحلة المغربية قضايا وظواهر، دار ضحى الجلفة، الجزائر، ط 1، 2017

- سميرة انساعد : الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في النشأة والتطوروالبنية، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2009، دط

- سيد حامد النساخ : مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا، مكتبة عريب للطباعة، القاهرة، دط، دت

شعيب حليفي : الرحلة في الأدب العربي(التّجنيس، آليات الكتابة، خطاب المتخيّل)، الهيئة المصرية لقصور الثقافة، دط، 2002

- محمد الحاتمي : الرحلات المغربية السوسية (بين المعرفي والأدبي)، مختبر البحث في التراث والأعلام، والمصطلحات، الرباط، ط1، 2012

-لخضر حشلافي :الرحلة المغربية واهم أعلامها، كتاب جماعي، الرحلة المغربية قضايا وظواهر، دار ضحى الجلفة، الجزائر، الجزائر، ط 1

- نوال عبد الرحمن شوابكة : أدب الرحلة الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون، عمان، ط1، 2008

<u>المجلات والدوريات :</u>

بدر الدين دخولةجدلية التخيلي والمعرفي في الرحلات الجزائرية في العصر الحديث، أعمال الملتقى الوطنيفضاء المتخيل في الرحلات الجزائرية في العصر الحديث، 10، 11 ديسمبر، 2013، منشورات التظاهرات العلمية، جامعة المسيلة، دط

فتيحة حاج بن فطيمة : القيمة التاريخية لكل الرحلات رحلة ابن جبير والطهطاوي نموذجا، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأدبية، المجلد الثاني، العدد الأول 2019

سعاد ترشاق : العجائبي في الرحلة الحجازية الجزائرية الرحلة الورثلانية : نزهة الأنظار في فضلعلم التاريخ والأخبارأنموذجا، مجلة حقائق الدراسات النفسية والاجتماعية، ع 15

صادوق الحاج :أسباب الرحلات المغاربية إلى الحجاز إبان القرن الثاني عشر للهجري / الثامن عشر ميلادي، مجلة معارف للبحوث والدراسات التاريخية، مجلة دورية، دولية محكمة، العدد10

ليلى غويني : الرحلات الحجازية الجزائرية النثرية في العهد العثماني، مجلة الدراسات التاريخية، مجلد 10، العدد 4، 2009

مسلم لباد، مالكي سميرة، أدب الرحلات الحجازية الجزائرية في القرن الثامن عشر ميلادي أنموذجا مجلة لغة .كلام مخبر اللغة والتواصل، جامعة غيليزان، المجلد 7، العدد2، مارس، 2021

نبيل راغب : أدب الرحلات، مجلة الفيصل، دار فيصل الثقافية، ع88، 8 يوليو 1984

أطروحات الدكتوراه :

- الطاهر الحسيني : الرحلة الجزائرية في العهد العثماني بناؤها الفني أنواعها وخصائصها، دكتوراهعلوم، إشراف العيد جلولي جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 2013، 2014

- روباش جميلة : أدب الرحلة في المغرب العربي، رسالة دكتوراه، إشراف محمد لخضر افورار، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خير، بسكرة، 2014، 2015،

- عيسى طهاري : تقنيات السرد في الرحلة الورثلانية، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، تخصص : أدب عربي، إشراف : د. جكال سعادنة، جامعة الحاج لخضر باتنة (1)، كلية اللغة والأدب العربي والفنون، قسم اللغة والأدب العربي، 2019-2020.

الهوامش:

1- سميرة انساعد : الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في النشأة والتطوروالبنية، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2009، دط، ص21.

2- روباش جميلة : أدب الرحلة في المغرب العربي، رسالة دكتوراه، إشراف محمد لخضر افورار، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خير، بسكرة، 2014، 2015، ص 25

3- الحسين بن محمد الورثلاني :الرحلة الورثلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فل علم التاريخ والأخبار، ج1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008، ط1، ص13.

4- سميرة انساعد :الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، ص 28

5- جميلة روباش : أدب الرحلة في المغرب العربي، ص 45..

6- ليلى غويني : الرحلات الحجازية الجزائرية النثرية في العهد العثماني، مجلة الدراسات التاريخية، مجلد 10، العدد 4، 2009 ص 61.

7- لخضر حشلافي :الرحلة المغربية واهم أعلامها، كتاب جماعي، الرحلة المغربية قضايا وظواهر، دار ضحى الجلفة، الجزائر، ط 1، 2017ص 18.

8- سميرة انساعد : المرجع نفسه، ص 67.

9- ليلى غويني : الرحلات الحجازية الجزائرية النثرية في العهد العثماني، ص74.

10- المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

11- المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

12- جورجي غريب : تاريخ الرحلة، تاريخه وأعلامه، المسعودي، ابن بطوطة، الريحاني، دار الثقافة، بيروت، لبنان، دت، دط، ص5.

13- ليلى غويني، الرحلات الحجازية الجزائرية النثرية في العهد العثماني، ص74، 75.

14- ليلى غويني، الرحلات الحجازية الجزائرية النثرية في العهد العثماني،، ص 76.

15- فتيحة حاج بن فطيمة : القيمة التاريخية لكل الرحلات رحلة ابن جبير والطهطاوي نموذجا، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأدبية، المجلد الثاني، العدد الأول 2019، ص303 .

16- المرجع نفسه، ص 303.

17- جميلة روباش، المرجع نفسه، ص 22.

18- حياة ذيبون : التلاحم بين التاريخ والسرديات في خطاب الرحلة المغربية :ضمن، كتاب جماعي : الرحلة المغربية قضايا وظواهر، دار ضحى الجلفة، الجزائر، ط 1، 2017، ص 330.

19- حياة ذيبون، التلاحم بين التاريخ والسرديات في خطاب الرحلة المغربية، ص 333.

20- فتيحة حاج بن فطيمة : القيمة التاريخية لكل الرحلات رحلة ابن جبير والطهطاوي نموذجا، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأدبية، المجلد الثاني، العدد الأول 2019،ص 310.

21- الحسين الورثلاني :الرحلة الورثلانية، ص 18.

22- رحلة الورثلاني، ص 19.

23- المصدر نفسه، ج 2، ص 465.

24- المصدر نفسه، ج2، ص510.

25- المصدر نفسه، ج2، ص 511.

26- المصدر نفسه، ج 2، ص 524، 525.

27- رحلة الورثلاني، ص 525.

28- م ن، ص 534 وما بعدها.

29- رحلة الورثيلاني، ص541.

30- جميلة روباش، أدب الرحلة في المغرب العربي، ص 79.

31- رحلة الورثلاني، ج 1، ص 157.

32- بدر الدين دخولة جدلية التخيلي والمعرفي في الرحلات الجزائرية في العصر الحديث، أعمال الملتقى الوطني فضاء المتخيل في الرحلات الجزائرية في العصر الحديث، 10، 11 ديسمبر، 2013، منشورات التظاهرات العلمية، جامعة المسيلة، دط، ص 204.

33- الرحلة، ص170، 171.

34- المصدر نفسه، ج1، ص303.

35- الطاهر الحسيني : الرحلة الجزائرية في العهد العثماني بناؤها الفني أنواعها وخصائصها، دكتوراهعلوم، إشراف العيد جلولي جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 2013، 2014، ص344.

36- مسلم لباد، مالكي سميرة، أدب الرحلات الحجازية الجزائرية في القرن الثامن عشر ميلادي أنموذجا مجلة لغة .كلام مخبر اللغة والتواصل، جامعة غيليزان، المجلد 7، العدد2، مارس، 2021.

37- صادوق الحاج :أسباب الرحلات المغاربية إلى الحجاز إبان القرن الثاني عشر للهجري / الثامن عشر ميلادي، مجلة معارف للبحوث والدراسات التاريخية، مجلة دورية، دولية محكمة، العدد10، ص430.

38- الرحلة، ص 178.

39- المصدر نفسه، ص 431.

40- صادوق الحاج : أسباب الرحلات المغاربية إلى الحجاز إبان القرن الثاني عشر للهجري، ص 446.

41- شعيب حليفي : الرحلة في الأدب العربي(التّجنيس، آليات الكتابة، خطاب المتخيّل)، الهيئة المصرية لقصور الثقافة، دط، 2002، ص69

42- نبيل راغب : أدب الرحلات، مجلة الفيصل، دار فيصل الثقافية، ع88، 8 يوليو 1984، ص71.

43- حسين نصار : أدب الرحلة، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، ط1، 1991 ص132.

44- سيد حامد النساخ : مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا، مكتبة عربب للطباعة، القاهرة، دط، دت، ص08.

45- عيسى طهاري : تقنيات السرد في الرحلة الورثلانية، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، تخصص : أدب عربي، إشراف : د. جكال سعادنة، جامعة الحاج لخضر باتنة (1)، كلية اللغة والأدب العربي والفنون، قسم اللغة والأدب العربي، 2019-2020 ص82

46- رحلة الورثلاني، ص 146.

47- المصدر نفسه، ص627.

48- نوال عبد الرحمن شوابكة : أدب الرحلة الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون، عمان، ط1، 2008، ص53.

49- محمد الحاتمي : الرحلات المغربية السوسية (بين المعرفي والأدبي)، مختبر البحث في التراث والأعلام، والمصطلحات، الرباط، ط1، 2012 ص292

50- رحلة الورثلاني : ص688.

51- عيسى طهاري : تقنيات السرد في الرحلة الورثلانية، ص178-179.

52- الرحلة / ص111.

53- المصدر نفسه / ص165.

54- الرحلة، ص153-154.

55- المصدر نفسه : ص113.

56- المصدر نفسه، ص، ج1، 21.

57- المصدر نفسة، ص41، ج1.

58- جميلة روباش : أدب الرحلة في المغرب العربي، ص99.

59- الرحلة، ص61، ج1.

60- المصدر نفسه، ج1، ص20.

61- سعاد ترشاق : العجائبي في الرحلة الحجازية الجزائرية الرحلة الورثلانية : نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار أنموذجا، مجلة حقائق الدراسات النفسية والاجتماعية، ع 15، ص219.

62- الرحلة، ص569.

63- شعيب حليفي : الرحلة في الأدب العربي، ص401.

64- حسين النصار، أدب الرحلة، ص132.

65- الرحلة، ص414، ج3.

66- الرحلة، ص412، ج3.

67- الرحلة، ص417، ج3.

68- الرحلة، ص68

69- الرحلة، ص527، ج1.

70- الرحلة، ص743، المجلد الأول .

71- الرحلة، ص 531.

72- الرحلة، ص64، المجلد الأول .

73- الرحلة، ص409.

74- الرحلة، ص66.

75- الرحلة، ص72.

76- الرحلة، ص11.

77- طاهر حسيني، : الرحلة الجزائرية في العهد العثماني بناؤها الفني أنواعها وخصائصها ص151.

78- الرحلة، ص83.